فوق جمر اليأس

لـيـلـيـان

أنشب الخريف مخالبه فى أيامها وفقأ عيون المعجبين بجمالها . . تحطمت مرآتها وانطفأت شمسها . . فانغرزت فى الضباب فى فستان من ضباب . . وبكل غضون وجهها صرخت يأسها . . سمع الزمن صرختها وضحك على غبائها . . فالمرأة أبدا زهرة لاتذبل أوراقها . فقط يشيب شعر أطفالها .

انقضت عفاريت القحط على الأراضى الروسية وحكمت بالموت جوعا على الفلاحين . . فقام تولستوى ينظم حملات إغاثة لضحايا المجاعة . . أمضى عامين فى جبهة البؤس يداوى فيها جراح الفلاحين ، ويهاجم بقلمه الأغنياء الذين يبهون قوت الشعب ويمتصون دماءه . ويرسل إلى سونيا البعيدة عنه ، أحلى كلمات الحب . ثم مع سقوط الأمطار وعودة الأجسامة الخضراء إلى الأرض ، عاد تولستوى إلى بيته . وإن تذمره من حياة الترف التى يعيشها اشتد حنقه على نفسه وصب جام غضبه على زوجته . تحملت سونيا بركان غضبه ولكنها لم تتحمل توطد علاقته بصديقه وابنه الروحى تشرتكوف . اندلعت نيران غيرتها والتهمت سعادتها الزوجية . كما ذكرت فى الأسبوع الماضى .

فى النهر الأبكم للزمن الأسود

تحالف الزمن مع القدر على تنغيص عيش سونيا . سطا على نضارتها وقهرها . أتلف حوافها وأغانيه . نقش بشبابها وأعماله . دبر لها مؤامرة للإطاحة بآمالها وأحلامها . أعد لها يوم ٢٢ أغسطس ١٨٩٤ كمكافأة عيد ميلادها . وفرز فيها حسين شمعة وأرغمها على أن تطفئها . أحنت سونيا رأسها للزمن ، ونفذت أوامره . . نجحت المؤامرة . انطفأت شمسها وسحق ليلها نهارها . ضلت طريقها فى الظلمات وهى تحمل على رأسها قارة من الضباب . بكت بصمت وهلع وانتظام . تحولت عيناها إلى حقل أحزان تتكسر على صفحتيها أشجان الدنيا . رأت الأشجار حافلة ومدت لها أغصانها . ترنحت سونيا فى أحضانها وأخفت رأسها فى أوراقها . اعتصرت آلامها الأغصان فأصبحت الأشجار بوتة يأس . عانقت سونيا يأسها ، وغدا خد ثاهت معه فى صحارى الحسرة .

أحبتها وأحبت الحياة وحامل الوعود . غفر ما وخانها شبت فجأة بداء الصمت وسكت عن الكلام . . لم يعد يناجى نفسه ويحكى إلى نفسه مغامرة الحياة . لم يعد يعرف بلحنه أنغام الحياة . . لم يعد يصحب بلحنه الإيقاعى القمر وهو يدور حول نفسه مع كل شهر قمرى . . لم يعد يرن فى جسدها صدى خفقات قلب الكون ودقات ساعة الزمن . . جسدها فقد الكلمة . . فقد مفتاح الحياة . . لم يعد يتكلم ويصرخ . ويضحك ويبكى ، ويحلم ويترف . لم تعد تسيل منه الحياة بدمها ودموعها . وكذلك عرقها . . جسدها فقد الأمل فى الأمل . . إنه جسد بلا وعد . جسد قطعت عنه الحياة . . الزمن هذا الوحش المتحجر القلب امتص دمها وحرمها من صنع معجزة الحياة . . الحياة لم تعد فى قبضة يدها تمنحها أو تغلبى بها كيفما تشاء . . بعد أن كان دمها كنهر النيل ، رب الرزق الوفير ، واهب ، ووالد الأرباب وخالق الكائنات ، صار دمها كنهر أبكم أخرس أصم . يجرى فى عروقها فى جمود الصحراء ، حاملا فى كرياته البيضاء والحمراء الموت المحلف والقرين الأسود للوحدة . غمرها بكل سيئة الحسن يؤكد لها هذه الحقيقة المرة . ويقول لها بصوته العجوز : وحنطته ستكون طلقت العمر فى الشعر الشائب . تكهربت أوتار شعرها وشحابها . . شيب الهم قلبها وتلفع بالشيب حزنها . وكالطائر الجريح أخفت رأسها تحت جناحها . . فسقطت قارة الضباب على الأرض وانفجرت . . تناثر الضباب حولها بحباله وصخوره ، وحجارته ومجمعاته . . فانغرزت فى الضباب فى فستان من ضباب . . عزفت فرقة اليأس الموسيقية فى صدرها لحن موت الشباب ، فغنت الحسرة على أنغامه نشيد حسرتها . . كيف تحمد دورها وتشكو ألمها ؟ . . بالدموع ! . . لا بالدموع الصامتة إنما بالدموع الزيادة الصداحة . . فإذا كانت الحسرة لاتطفئها إلا دمعة . . فالجمرات لاتطفئها إلا سيول الدموع . . ولاعجب فى أن تبكى المرأة على شبابها ، فالرجال أيضا يبكون على شبابهم . ألم يقل ابن الرومى على شبابهم

أين ضلوعى جمرة تتوقد
على ماضى أم حسرة تتجدد ؟
خليلى ماسمعة الشباب وزينة
نحو لها ماء الشئون ويتعقد
فلا تلحيا إن فاض دمع تقلده

فقال له نحر من الدمع يشتد
ولا تعجبا للحيلة يبكى . فربما
تفجر عن عين من الماء جلمد
شباب الفتى مجلوده وعزاؤه
فكيف . . وأنى بعده يتجلد ؟

سجن المرايا

سحت سونيا دموعها حتها فى الحريق . . تركتها تبن وتحن ، وتئن وتحن ، وتحول وتزف . . ارتوت خدودها ولم ترتو غضونها . . فقد حرثها الزمن بمحراث مخالبه . وبذرها بشتها فأبدا لن ترتوى لوعتها وحرقتها . . بكت سونيا على غدائها وعذاب غضونها . . واستمرت فى البكاء . . تحولت إلى فرقة موسيقية للبكاء . . فرقة تعزف بكل آلاتها الخشبية والنحاسية ، وبكل جوارحها الوترية والكهربية ، موسيقى الدموع الروسية والبريطانية والعربية والفرعونية . . بكت فى كل مكان لأن آثار مخالب وأنياب الزمان واضحة فى كل مكان من أرض جسدها . . وتعكسها لها بصدق مرآتها الزجاجية ومراياها البشرية . . غنا زوجها ابن الست والستين منذ شهور لما يشاله ما قاله من قبل الشاعر العربى أبو دلف :

شيب الرجال لهم زين ومكرمة
وشيبكن لكن الويل فما كنتن

والشيب اشتعل فى أوراق رأس عائلة الكبار سيرج وتانيا وإيليا ، وراح يغنى بنهاره الأبيض سواد ليل شعرهم . ليذكرها بعمرها . . ومرآتها التى كانت بالأمس قرة العين . ها هى ذى الآن قناعها بأوزانها وسواد ليلها . . بهجة عينها صارت نكد عينها . . ياله من مرآة نكدة . عاندتها ورفض أن تعمى عينها عن عيوبها . . كل يوم تعكس بصدق صورتها . . كل يوم تفضح شيبها وغضونها وتجاعيدها وترهل لحمها . . كل يوم تنشد لها بحكمة النابغة الجعدى :

المرء يأمل أن يعيش وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويأتى بعد حلو العيش مره
وتسوءه الأيام حتى مايرى شيئا يسره

وكل يوم يزداد نكد سونيا وغمها . . وكل يوم تعمل نصيحة زوجها وتعانق الكآبة . . وكل يوم تنشد بيأس الشباب وتمد يديها إلى الزمان . فيحتمى فيها الضباب ويغزوها بجيوش من الهالات السوداء . . كل يوم تتوسل وتتضرع إلى مرآتها أن تتحايل معها على الزمن وتخدعه . . أن تهديها أزهار الربيع فى باقة من المساحيق أن تظلل هالات عينيها السوداء بأوراق الورد . . أن تنحت اللازوردة على جفونها . . وأن تنثر زهر الرمان على خدودها . . أن تشيع كآبة نظراتها وتعيد إليها بريق اللآلئ .

لكن المرآة يوما بعد يوم ترد إليها بصمت اليأس . . فقد أصيبت هى الأخرى بداء اليأس . . يئست من نفسها . . ومن سونيا وعذولاتها اليائسة هو آثار ضرب وعض وتكم وكدم الزمان لها . . انصعت بصدق المرايا عن الكذب . . وأذرتها نفسها غرزت فى سونيا كل أشواك الورد والنباتات الشائكة .

حبت سونيا . . ذمى على الشوك ألمها . . تلمست فى أتون اليأس . . غازلها شبح الموت . . أتصده ؟ . . لا . . لاتمكن أن تقدم خطوة أخرى فى الحياة . . لا !

لاتمكن أن تسير إلى مالا نهاية فى موكب جنازة شبابها ووراء نعش جمالها . . أتنتحر ؟ . . لا ! . . إن زوجها . . طفلها العجوز . . فى حاجة إليها . وأيضا عيالها . . ماالعمل ؟ . . أن تنتقم من مصدر بلاياها . . من مرآتها . ومن عيوبها التى تجهل فن الخداع والغش والكذب . . حملت فأسا بين يديها . . وبعنوان الضابط الرمادية انقضت على مرآتها . وضربة بعد ضربة حطمتها . . انكسر قلب المرآة . وانشق عقلها . وانطفأت عيونها . وماتت نظراتها المميتة ارتاحت سونيا . . لم تعد ترى نفسها . . شكرت فأسها . وسلمتها قبلت رأسها قبلة الامتنان .

انزاح الهم عن قلبها . انقضى وزنها . أصبحت في وزن الريشة وخفة جناح الفراشة . بسطت جناحيها وطارت في أرجاء حجرتها . فتحت عينيها وأمعنت بصرها بعمق دنيا بلا مرآة . بلا عيون . بلا حجر .

ثم انطلقت بجنون قطرة الندى الوردية خارج حجرتها . هبطت على أرض الواقع ومشت فوقها بخطوات دبة في ديناصورة . فهنا وهناك مرايا ومرايا ومرايا . في البيت . في الغيط . في الشارع . في عيون الخيل . في دولابها . في حقيبة يدها . في مياه الأنهار . في ماء الدلو . في زجاج النوافذ . في عيون النرجس . في أنفاس الشيخ . في شقاوة الأطفال . في قوة الشباب . في نظرات الناس . وفي كلماتهم . وفي ضحكاتهم . وفي ابتساماتهم . دائما أبدا مرايا ومرايا ومرايا . « لا يمكن ترويض المرايا » . إن في يدها فأسا . إذا عذبتها المرايا فستضربها به . إذا أهانتها فستكسرها وتحولها إلى فتافيت . لكن المرايا سحر تمد صوره على طول الأرض . وتمتد ترانه بمتد جماد ونبات وحيوانات وسكان الأرض .

قلم في سن اليأس

مشت صوفيا فوق جسر اليأس . فتحت عشب الأمل تحت قدميها . لاخلاص لها إلا بالثورة . تختال أحزانها وأشجانها . وبيدها تحطها . تتحرر من يأسها . فتفتش عن كل مال قلبها من قصص . تنزع الأشواك من جلدها وتغرزها فيمن حولها . وهذا ما حدث .

هاج قلمها . احتقن وجهه . ارتفع ضغط الدم في شرايينه . استوطن الصداع في رأسه . دائخ . انصب عرقه على الورق . كتب :

« الدنيا بأسرها تتآمر على لتنغيص عيشي . الكل يضطهدني . ليوفوتشكا جلادي . وأولادي لا يجلبون لي سوى الهم . ليون أصيب فجأة بالشيزوفرينيا . وفي حاجة إلى علاج بالصدمات الكهربية . فانيتشكا الصغير الرقيق دائما مريض . حتى يعيش حياة اللاأخلاقية . إيليا نعيش في رواحه ويبعثر أمواله يمينا وشمالا . تانيا وماشا ترتدان عادتي أبيهما إيمانا أعمى . وماسم مالك يستطيع ميدان الزواج . ولا يختلفان إلا شريانيه . وجميعهم كأبيهم . أنانيون . ومتهورون . ومستهترون ويفتقرون إلى الإحساس بالمسئولية . هذا مع فارق أن أباهم طوال حياته حاول أن يعتقد على هذه العيوب . في حين يستشعرون هم لها . . . »

ثم عرض قلمها رأسه وعرض ليوفوتشكا . وكتب :

« ليوفوتشكا يشد بكل جوارحه حياة البساطة ليعقد حياتي أنا . إن تمسكه بالنظام النباتي أدى إلى تعبي وإرهاق ميزانيتي . إذ يتعين على أن أعد لكل وجبة طعام قائمتي طعام حافلتين بالأطباق الشهية النباتية واللانباتية . كما يتعين على أن أقف على الأكل ضعف ما كنت أنفقه . إن مواعظه الفاشلة عن الحب والمحبة أدت إلى إهماله لأسرته . وفتح أبواب بيته لكل من هب ودب . إنه تنازله عن ثروته وأملاكه أدى إلى الشقاء . وإدانته لكل من يملك روبلا أو قطعة أرض .

ثم نبح قلمها وعض ليوفوتشكا . وكتب :

« إنه عري من كل التزاماته ليلقي بها كاهلي . أنا المسئولة عن بيته وعياله . أنا المسئولة عن إدارة أعماله والتعامل مع الناشرين الروس والأجانب . أنا المسئولة عن استقبال أتباعه والمعجبين به من مشاهير ومغمورين . والترحيب بهم . والترفيه عنهم . وتكريمهم بإقامة الولائم الضخمة لهم من جيبي لأملأ جيبه . أنا المسئولة عن كل شئونه . ثم بعد كل هذا الجهد الذي أبذله لإرضائه . خضوعي لأي أمر بكل هذه « التفاهات » . وينطوي على نفسه . ويحوز حرم أنانيته . ويستقبل بعنف وقسوة . وهو ماذا يفعل ؟ يمتطي حصانه ويتنزه في الغابة . يكتب قليلا ويتكلم كثيرا . يعيش حياته عابثا له . لا يبالي بأسرته ولا يعمل شيئا لها . يتطوع بكل من وما حوله . بالهيئة العيش في البيت . بمساعدة يأنه له . قلق من يحبه له . خضوعي له وكذى من أجله وهي نسيه . وهذا إنكفاء إلى الحد الذي أبدا لايرتوى . والذي من أجله ضحى بكل شيء . ولايزال يضحي » .

ثم خاف قلمها من حكم رجال النقد عليها . وبعد أن دافع عنها أمام أفراد أسرتها والجيل المعاصر لها . قرر أن ينقل قضيتها إلى محاكم النقد . وترافع عنها أمام الأجيال القادمة . وقال ضمن ماقال في مرافعته :

« إن الذين سيكتبون سيرة العبقري العظيم ليون نيكولا يفيتش تولستوي سوف يقولون إنه كان يسقي عن خدمات خدمه . ويتوجه بنفسه كل صباح إلى الحوش . يملأ الدلو في البئر . ثم يحمله في يده ويعود به إلى البيت . ولكن أيعرف أحد منهم أنه خلال الثلاثين والأربعين سنة لم يقدم قطرة واحدة إلى أحد أبنائه . ولم يقض حتى دقائق إلى جوار سرير مريض منهم . كي أنهم لا يمنحه راحة ألتقط فيها أنفاسي ؟! . . »

عبقري ولكن تيس !

ثم اقترب قلم صوفيا من أذنهم ليعرف رأيه فيما نسب إليه من تهم . فقاح من تولستوي عبير عطر تيس . تعلمت خياشيم القلم بالرائحة النتنة . فسد أنفه وكتب :

« يوما بعد يوم يزداد تقززي واشمئزازي من زوجي . إنه يتجاهل أبسط أصول وقواعد النظافة . أيفعل ذلك عمدا ليتقرب من الفلاحين الذين دائما مايحسدون ؟! ! . ماذا جرى له ؟ . شتان بين حاله بالأمس وحاله اليوم . بالأمس كان يعني بنظافة بدنه . ويحرص على أناقته أشد الحرص . ويمشط شعر رأسه ولحيته . ويقلم أظافره . ويرش سحابة من ماء الكولونيا حول وجهه وتحت إبطه . أما اليوم فإن دخول الحمام بالنسبة له حدث . وأي حدث ؟ إنه يخاصم الماء والصابون . لايستحم . لايغسل قدميه ولايديه ولاعرقيه ولارجليه . إن قدميه من شدة الوسخ العالق بها ، أظافرهما قشور سوداء . ولاداعي لذكر ماتحت إبطه وما اجتمع من الوسخ في أظافره . يكفي أن أقول إن رائحة التيس الكريهة تفوح منه ! . اشمئزازي من قذارة زوجي يؤلمني جدا . لكني لم ولن أعتاد أبدا على القذارة والروائح الكريهة . هذا محال ! ! ولمحته مرارا وتكرارا . لكن بلا جدوى . أصر على عاداته لينكل بها . لاأعرف كيف أعبر له عن قرفي منه ولا كيف أحببه على النظافة . غلب حماري . »

ولو كانت صوفيا عربية لاروسية لاتخذت مشكلتها . كيف ؟ بأن تنهب من كنوز الأدب العربي كل ماتحلو لها من نثر وشعر يعبر عن نكدها بقذارة زوجها ، وتغني في رحمه بأحلى الكلمات وفي كل المناسبات . حتى يدرك بعبقريته الفذة أن النظافة من الإيمان . فإذا حاول أن يختلس منها قبلة . قالت له :

وإن امرأ يقوى على لثم ثغره
على الضغط والتعذيب في قبره يقوى

« وإذا ضحك قالت له :

كـــأن مـــقـــالـــع أضـراســـهـــم
إذا ضــحـــكــوا حـــيــف الخــنـفــس

وإذا اقترب منها . وفاحت الروائح النتنة من إبطه وجسده قالت له :

واسـطقت قـابض الأرواح يـرمى
بسـهـم الموت من تحت الثـياب
و . . . . ريحه . . . ريح كلاب
هــــارشت في يوم طـــــل
و . بارحتني لسحوره من نته
كم في الكنيف بقيع ريح العدم

وإذا اضطهد ثوبا من ثيابه وأصر على ارتدائه دون غيره حتى بلغت درجة قذارته . قالت له : لكل شيء راحة . فراحة البيت كنسه ، وراحة الثوب طيه . ولويك يقول لك اطوني أحملك . وأكرمني داخلا أكرمك خارجا !

وإذا أكل تفاحة . قالت له قصة تفاحة عبد الملك بن مروان الذي كان يسمى أبا الذباب لأن الذباب كان يموت إذا قرب من فيه . لشدة بخره ونتن رائحته . وقالت له : يحكي أنه في يوم من الأيام عض عبد الملك بن مروان تفاحة ، ثم رماها إلى إحدى زوجاته . فأحضرت الزوجة سكينا وقطعت به موضع عضته . فقال لها : « ماتصنعين ؟ » . فقالت له : « أميط عنها الأذى » . فطلقها !

لكن لم تحك صوفيا لزوجها قصة تفاحة أبي الذباب لأنها لاتعرفها . ولم يطلق تولستوي زوجته لأنها هي التي قررت أن تطلق الحياة . ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها .

قصة قصيرة

الطبلة

محمد قطب

١

عند منحنى الحارة، وقف .. عيناه لا تستقران .. ومقلاعه يلتوي في يده، يلوح به في الهواء، يضرب به الفراغ، يحاول أن يحشوه بحصاة مدببة .. أسند جزعه على الجدار وأخرج بلحة حمراء ظل يدعكها حتى هرسها ثم نثرها على الأرض. لمح حبل النمل دقيقا ملتويا أسفل الحائط، وعلمين يحاولان في عزم واضح الدخول بنصف حبة قمح في شق مغمور .. انسحب في صمت، وحدق فيهما. عز عليه أن يرى النملتين تجاهدان في حمل نصف حبة القمح .. عطف عليهما .. وجمع فتات البلحة المهروسة .. وملأ الشق .. ارتاحت النملتان، ثم انفرط حبل النمل .. وعجز عن الوصول .. انتشى في نفسه حين رأى التشتت، لكنه .. حين أقام ظهره واستقام .. اعتقد أنه سيعثر على شق آخر لا محالة .. اصطدم في عنف بجسد ضخم .. استدار فواجهه وجه الشيخ .. ابتسم لكن الشيخ تجهم .. حاول أن ينطق لكن قبضة الشيخ حين جذبته أماتت فيه المحاولة .. نفضه في قوة وقال:

- تعلم الأدب .. واحفظ لسانك

ساحت معالم وجهه، وابيضت عيناه، وتهدل شدقه فتراخى لسانه، وأصابه جمود مفاجئ .. ولم ..

- ماذا تقصد؟

فرك أذنه وأطبق على فمه حتى لا يصيح

- لسانك يدلني .. وقد ذكرني بالسوء

- لكني أهبل

كبس لبدة فوق رأسه وطوق عنقه بمقلاعه .. ووضع في عبابه حفنة حصى

- لأنك أهبل فلا تتحدث عني

هرس حبات الحمص وطيرها في الهواء واستحلبها حبة .. حبة .. وهو يحدق في الشيخ .. وطيف ابتسامة لاحت فأعوج شدقه .. وسال لعابه .. وقال في حدة:

- لم أتحدث عنك .. تحدثت عن زينة امرأة شيخ البلد

هزه الشيخ وسحبه من يده، طلب منه أن يتركه ليبحث عن شق جديد للنمل

- حرام أن يضل النمل ولا يهتدي إلى بيته وأتحمل أنا وزره

وأنت عارف بالله .. ياشيخ .. النمل سيموت .. حرام ..

واشتد صياحه، ولوح بالمقلاع .. ووقف بين العين وتصلب الرمش .. فخاف الشيخ الفضيحة .. ومضى.

في المقهى المليء بالغلمان .. وقف العارف بالله .. (يقولون عن الشيخ إنه العارف بالله -) يتذاكر .. يتمايل .. تتساقط من شدقه رغوة مزبدة .. يتصارع على لحسها الأتباع .. جريت أرمي رغوتي .. فأنا الآخر لي رغوة تسقط من شدقي - عل أحدا يلحسها .. وحرصت أن يعلو صوتي .. وأتم ذكري .. بل حرصت على اخفاء مقلاعي حتى يسهل الأمر .. لكن الأتباع أحاطوني .. ضربوني فسقطت .. وحين ألقيت تحت قدميه .. شممت رائحة عطر .. كان عطر زينة .. كانت تدعك جسمها به حين تدعوني لتطغى على رائحة السباخ في جسمي .. وحين بعثت إليها حزمة أخبرها أن العارف بالله يتعطر بعطرها .. صرخت في وجهي وباحت بالصوت .. طلبت من الناس أن يغيثوها. فقد تجرأ الأهبل .. ومد يده .. وحين دار العارف دورته .. درت - تحت قدميه - دوري .. فرد كفه فسقطت قطع النقود .. فردت كفي .. كانت كفه محروقة .. وكانت كفي صلبة .. طلبت خواطف من العارف المتوسي .. فهرست صادوها .. ياشيخ .. النمل سيموت .. حرام .. وفردت مقلاعي وطوحته .. فطارت عمامة الشيخ .. العارف بالله .. فتكت النساء .. ما تأتي إلا .. الرجال يخاصمونني .. ما عادوا يذكرونني باسمي .. أهبل .. أهبل .. كيف أكون السبب في نكاية الحريم؟ .. يخاصمني الرجال من أجل الحريم .. الحريم لكني لأن المتوسي المحوس برغوة العارف بالله حتى .. وغضب .. وما عدت يدعى إلى المقهى المليء بالغلمان .. ولو دق قطع النقود في الحق .. صحيح في الحق .. وإذا لم يكن على رغوة العارف بالله البكاء فلمن يكون .. لكن ما شأن الرجال؟ .. صحيح ما شأن الرجال؟.

٢

دوّت الصفارة، يذكرها من بين جميع أنواع الصفارات .. فهو لا ينسى رنين صفارة العفير العجوز .. طالت رقبته وعلقت عينه على انسياحها .. خدش الصوت السمع .. زحف الرجال والنساء والصبية .. هلع يصيح من العيون وغبار يتطاير في الجو .. خبطات الأرجل والأقدام هرولة صاخبة .. لمح امرأة تولول وهي ترمي طرحتها في الهواء .. يركض البعض تجاه الحارة الأخرى و "العفير العجوز" يسرع نحوه رنين صفارته لا ينقطع وعصاة الخيزران تعلو بينما تقبض يده اليسرى على ذيل جلبابه فتبدو تكة سرواله للنور وتلتف حول ساقيه .. قطع عليه طريقه ملوحا بمقلاعه.

- ماذا جرى؟

نحاه بقوة، لكنه خطف صفارته بسرعة وظل يدور حول نفسه وحول العفير .. يصفر .. ويصفر .. ويصفر.

- ليس وقته يا أهبل

زغده بشدة فصرخ بحدة .. كما لو كانت صرخة قد خرجت توها من مستنقع الألم

- ترقدان يا عفير يا عجوز

لم يمهله .. صفعه ومضى يهرول

- يا أهبل

طوح بمقلاعه فأصابت الحصاة مؤخرته .. وقف يترنح وهو يكز بأسنانه .. وهو .. ينفجر من الضحك .. جمع لبدته .. يقذفها في الهواء .. يخطفها بالأرض .. يدبدب برجله كمهرول - يفتح شدقه، يتدلى اللسان على الجانبين، تسيح رغوة مكومة حول الأشداق .. يحس حالة شقشقة الطفل .. ثم ضحك ضحكة متواصلة مرتجفة .. ومط صوته في تهكم.

- يا عفير يا عجوز

وقف يتصنع الناس .. يتلفت يمنة ويسرة ينظر تارة إلى الرجال وأخرى إلى الحريم .. يعد بيده ليوقف صبية أو صبيا .. يود لو أن أحدا منهم رآه وهو يرشق العفير بالمقلاع .. لكنهم يولون عنه في إهمال (ليس وقته يا أهبل) .. كنس عنهم .. تقصدوه من أمامهم .. ولما أحس بوحدة انحنى إلى الشارع الخلفي

. أنا المشوق والمطرود .. أنا العاقل والأهبل في المقام يحلو اللقاء .. زحمت وراءها .. كانت القلب الأخضر الذي يحوطني دفئا .. أحس لزوجته وصهده .. أحس نبضه .. فأحط يدي بين كفيها فأصبح في رهج العين .. بيضاء مدعوكة كالمهرة .. صرت وراءها يناديني صوتها .. تتحرك فوق الموج والصوت حزين والآهة حرى .. علقتني على مشجبها فعدلها أنزلني .. أطعمتني .. سحبت من عوسي وأرستني على شطها .. علقتني جدائلها .. لم يكن مثلهن .. كن جميعا لها .. فسرت .. وحين تركتنا عوى فينا الهوى وصل القلب .. إلى وراءك .. مهروس القلب .. مفقوء العين .. فأنت بدلي .. ولبلد تباتي .. فتحوه .. وأودعوك .. ملفوفة في النش أخضر مطرز بلون عينيك .. من يحصي الآن؟ من يحدب علي؟ .. من؟ أولول كالحريم .. وأطوف حولك .. والقبر غارق في صمت الطويل .. وأنا ألف حولك .. والقبر يبعد بك .. وأنا ألف حولك .. والناس ينصرفون .. وأنا ألف حولك .. لم يبق إلا صوت الصمت والخفاء تفارع قولك .. تحس بك .. وصوتك يناديني .. وأنا ألف حولك .. لكني لم تطاوعني نفسي .. فحفرت أمام المدخل .. لا تحرمني فسأظل أحفر لك .. وصوتك يناديني .. وأنا أحفر لك .. والنداء رهيب .. وقلبي يحفر لك يناديني باسمي .. النداء همس وألم .. تأتين .. وأسمع اسمي .. هه .. هه .. لا .. لن .. هلال .. يأخذني الصوت فأفزع .. من يقدر أن يأخذني منك .. أو يأخذك مني .. حفرت وحفرت وحفرت .. وفرشت أصابعي .. وحفرت وحفرت .. أكنت أريد أن أدخل إليك أم كنت أبغي خروجك .. وطاش فراغي كله .. و .. وانحط على رأسي دوي هائل القناديل .. من أين جاءوا؟ .. وراءي في الحياة .. وراءي في الموت .. من أين جاءوا؟ .. لابد أن تحرقني القناديل كنلوق وأحلوا مني اسمي .. أيمكن أن أقطعها؟ أيمكن أن أطولك في الموت وأنت الحقيقة في الدنيا .. علقوها في رقبتي ومحوا من اسمي ..

٣

الزحام شديد .. والأصوات تختلط وتتعالى، صراخ النساء على كتابيت الرجال .. وفي الوسط والمقدمة .. الخراط والكلالية .. تهز فوق الرؤوس وتنتقل في الأيدي .. والعفير ينفخ .. يصرخ بصفارته .. يلوح بعصاه الغاضبة مرة .. قفز ومطه بمقلاعه .. وكبس لبدته وخرج له .. حين أراد أن يسأل رأى عواميد الدخان .. وسلاحيب النار مزمجرة غاضبة .. دفع بذراعه الجميع .. التصق في التحامه مؤخرة امرأة .. حاول أن يفلت فضغط الجميع .. حيط الأرض برجله ولوى عنقه .. زوجة شيخ البلد .. ماذا والنار .. مط رقبته وأدار عينه علّه يرى العارف بالله .. نظر إليها فانكسرت

فيها . ومدت يدها لتسحبه مال عليها . همس في سخرية

- ليس وقته يا زينة

- الناس كلهم هنا .

نظر إليها في غل . صرخ صرخة مدوية . سرعيها عقلاعه وغاص في الجمع . حاول أن يتعلل . أن يضحك . أن يبكي من القلب ... لكن الهم يطبق والغصة تزم الوجد ويرتفع صوت عالي .

- ليس وقته يا أهبل .

- ستطلبون حين تحتاجون إلي . ستطلبون يتهولون . لكنكم تخلدون علي في داخلكم . أنا الكاشف والمكشوف أنا الداخل والخارج . العارف والجاهل . الأحمق والعاقل .. أنا .. أنا ..

والتحمت قبضته . لكن عنق الرجل كاد ينقصف . حطمته يد قوية فبانت العروق النافرة . وتحجرت العين . طأطأ رأسه . واستطار أن الناس في رحاتهم لا يدرون ما يفعلون . تتحرك حواسهم دون أن يتحركوا !

٤

لم يدر كيف استطاعت هذه اليد الصغيرة النافعة أن تقبض على يده وتحكم الضغط . نظر إليها فضحكت ، وهأمأت .. كان صوتها له طعم حبة التوت . رفع عينيها رفع النجمة التي يسهر لها الليل طوله . دعتها الأرجل فارتعب الوجد . قبلها وحملها على كتفه . أعطاها المقلاع تلعب به الرؤوس المتشدقة .

- أين أنت !

غاص بها الجمع وهي تخبط صدره برجليها .

- انتظرتك في الغيط ولم تأت

كان منظره يرعب الأشفاق . حطت عليه بلادة لم يعرفها . فحككت بإصبعه أنفها ...

- كنت أنتظر مساعدتك في . حش . الديس تاهت عيناه . وتصلع لسانه ولم يلو على العنق

- أين كنت ؟

قالها في دفعة واحدة كأنه يزيل عنا ثقيلا

- كنت أزور الوحومة

- وكانت معك الطبلة

- تركتها منذ ماتت .. وأنت تعلمين

- سأنتظرك غدا .. ولتكن معك الطبلة

كورها ووضعها على رأسه . تنططت كالنحلة . حركت ذراعيها كالفراشة ودعو الشيخ له ليلعبها . لتستقر في الأحداء . عند موطن القلب تحت الفوطة . . . دار وظل يدور . وهو غافل عن الناس . ألن يدري قد تحدث المعجزة ويلعبها . خطفها . سنسير فيه من جديد . وتحدث التكوين .. دار . ظل يدور . طار بها . واستمر يطير .

- سأطفئ لك النار

صرخت الطفلة . وأجهشت بالبكاء . انشق رجل لاهث الأنفاس الطفلة منه . حط على رأسه . صاح فيه بعنف

- ليس وقته يا أهبل .

حين نظر إليها وهي تبتعد عنه غاص قلبه وانطوى عليه

. طفلتي التي لم تولد . أخذت من القلب . ظلت تسري في الداخل ولم تخرج . رأيتها في وجوه الصغار . حتى إذا كبروا عادت ثانية في تأخذ من القلب .. لكنها ماتت . وظلت هي في القلب . لن تخرج .. أخفيها في القبر . لكنها لن تخرج .. وأنت امتدادها .. أكان يجب أن تفرحي . كنت سأطفئ لك النار .. لم تعطني أن أست الكل ترصدني .. كان قلبها وساعده دالته . رعيتها حبا يحق لي أن أحلق فيه وأستحر برموش العين .. وأنت . جاء شعرك كعثاكل الصفصاف . لكن الفلك سقط كأنك أبيك .. مع أني حين لمسته كان متسببا لأنه كان أنفها . كنت سأطفئ لك النار . أتريني أني حين قبضت على شعرك فكرت أن أطفئ لك النار ! ! كانت تلعب بشعري فأفرد مقلاعي . أعطيه لك . وكان لها الراية . كان سيفا حاضرت به . أبو زيد الهلالي . ضربت ذراعه . وتلقفت درعه ثم حززت رأسه . كنت ألعب تحت قدميها . وأقول أصابعها لكنها حين رأت الدم ينزف فرت مني . وطوت الراية . أكان يجب أن تطوي في الظلام . حين طوحت بمقلاعي ورميت الحصوة .

. أكان يجب أن تمضي وتلوي على شيء

فرد مقلاعه وحشاه بالحصا . جرى وارتكز على نتوء مصطبة مهدمة . طوح به في الهواء . صادت عيناه الرجال يتدافعون صوب النار .. صادت عيناه الحريم يفرش الماء . صادت عيناه الصغار يتكدسون هنا وهناك . صادت عيناه . شهاب . النار . وقف عيناه . وتنصب الرمش . وتنطط نفح صدره . وتعرى ذراعه . كان أبو زيد يشهر سيفه . ويمتطي جواده ويندفع إلى الأمام . يتحرك في كل مكان . يدور في الهواء وينزل كالصاعقة . حدق فيه ثم أرخى يأفف - كم الخيانة . رمى بجرعه إلى الخلف . أمال يديه إلى الخلف ولم يكسبها . عرج له . أفسح ساقيه . ثنى إحدى الساقين وثبت الأخرى . ورمى النيران بالمقلاع . وكلما حطت الحصوة على ملاعب النيران ضج بالضحك . لكن غبشة مستمرة كانت معقودة على جبهته . أحس أن مقلاعه فلت عياره . وأن الحصا يطيش . وأن النيران مازالت تتوقد . وأن الناس بدأوا يسلقون الحيطان . رموا الخطب والقش . والحريم يرمين المياه . تطاير الحشم ذرات نيران متحاربة . أحس أن مقلاعه لا يطاوعه وأن رجلا يرقده في صدره ويصيح فيه

- يا أهل النيران تحاسب داري

فاق إلى القمة . ورمى بنظرة قلقة وانتبع ... انطفأ النيران والدفع

. الحريقة تحاسب داري ! الخطب واحد . والحريقة موصولة . سأطفئ النار . سأدور كالنحلة فحركتي ليست لكم . حركتي المحبوة في الحريقة . كنت حين أنظر إليها تبدأ الكلام مستترين بحريقة الخطب . وشعرها ألتادهم منتشرا . محمولا بالعيدان . أرى الحصوة فيها مكدوحة . ودفعتها بقوة . كانت العيدان ترتعش . ويقع مقلاعي مستسلما كابيا . كانت تحك أنفي - وتشلك أحلك الفك أنت بالفطي .. - وتقول أنا أسعد الناس حينما لا تمس الظل في يا هلال . القمر يختبئ إليك . وأنت تختبئ إلى البر . فرحان صغيران كانا يعومان . ويتقصان على حنديها تحط الحلاج قطرات ماء طالقة . لكنك ولّيت ولّيت وما حققت . أكان يجب ألا تتدنى في تحقيقي ؟ ! ؟

٥

بقفزة واحدة كان فوق الحائط . بقفزة أخرى كان وسط الخطب الشق . جذبه الرجال لكنه عاد - في عناد - يفتش . وكلما يكشف فيه ازدادت النيران اشتعالا . خاف الرجال لكنه لا يبالي . دفس رأسه في عمود الدخان وأصر على التكشف . ولما لم يجد الرجال جدوى من زحزحته ، رموا الخطب فحط عليه . كادوا يردونه معه لولا صرخة فرح شلت حركتهم . وكلمة زاعقة من شفتيه تدوي . لقيتها . لقيتها .. كاد يستسلم للحظة الفرح . لكن الأيدي امتدت وحطته من عمود النار قبل أن يشويه . فر بسرعة ورقص . خبط بيده على الطبلة . قبلها وخبط عليها . طوح بها . وخبط عليها . احتضنها وهو يخبط عليها . والرجال يحاصرون النار . وهو أمامهم يتنطط كالنحلة . ودقات الطبلة السريعة إيقاع الحماسة . وكانوا كلما رأوه يدق على الطبلة . ويشير بالمقلاع . إلى الدخان والنار والخطب والحشم . يتحركون في اندفاعة قوية . مسوقين إلى الحركة بلا وعي . كأن المقلاع عصا سحرية . وكأن الدق إيقاع لهم . والتأمت الغريبة النيران . خمدها . والأيادي تناول الحرافل . والمياه تحاصر النار تطفئها . وحين رأى النيران تخبو . وتتلاشى . ترك الطبلة ووضع الحصوة في المقلاع واعتلى الجدار . مال بجرعه وعرى ذراعه . كان أبو زيد الهلالي فاغرا فاه . رمى بمقلاعه في الهواء وصرخ . فارتخت عضلاته وانفرج فكه ومال العابد . لكنه نسي أن يكبس لبدنه . كانت قد سقطت . احتضن طبلته . نقر على جلدها . صاح بقوة . أين أنت ! حاول أن يراها . أن يبحث عنها . أن يجد اللفتة الصغيرة التي جذبته بقوة وسط الجمع . لكنه عجز . اندفع وسط الناس . غاص بجرهم ومضى . كان يجد صوب الغيط . ولم يلتفت وراءه . كان مأسورا بنداء قوي يجذبه . والطبلة في حضنه . نائمة مستسلمة . فلعله يجدها عند الغيط . ولعله في الصباح . يستطيع أن يساعدها في حش الديس . ويلعب معها على دقات الطبلة